الاثنين 8/4/2013 الشيخ الطبيب محمد خير الشعَّال

سلسلة التفسير

سورة الكهف (7)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وعملاً متقبلاً يا أكرم الأكرمين. أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. نسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك وبعد:

نحن في تفسير آيات من سورة الكهف.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف: 16].

أخذ العلماء من هذه الآية وجوب اعتزال الباطل وأهله لمن لم يستطع تغيير الباطل؛ لأن أهل الكهف اعتزلوا أهل الشرك والضلال عندما عجزوا عن تغيير ضلالهم وشركهم.

قصة أهل الكهف تدور حول شباب كانوا في زمن ملك يعبد الأوثان فآمنوا بربهم فلما اطلع إلى حالهم استدعاهم وطلب منهم أن يرجعوا عما ذهبوا إليه من الإيمان بالله وحده فأبوا فهددهم بالقتل فاعتزلوا قومهم.

قال العلماء: يجب على المسلم أن يهجر الذنوب والمعاصي وأهل الذنوب والمعاصي إن لم يستطع تغييرهم عما هم عليه وهذه عادة المرسلين وحال الصالحين.

فهذا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يهاجر مع أصحابه من مكة إلى المدينة؛ لأن أهل الضلال والباطل والشر منعوهم من إقامة شعائر دينهم فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى الحبشة الأولى ثم الثانية ثم هاجر مع صحابته من مكة إلى المدينة هَجْرَاً للباطل وأهله مع أن الكعبة كانت في مكة المكرمة إلا أنها كانت محاطة بالأصنام.

سيدنا إبراهيم عندما حاربه قومه وضاقت به الأرض قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: 99].

سيدنا يوسف عليه السلام عندما خُيِّرَ بين السجن وبين الوقوع في الفاحشة ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: 32].

فرقٌ كبيرٌ بين أن يكون أحدُنا في قصر وهو مع شيطان وبين أن يكون في كهف وهو قريب من الرحمن.

ذكر بعض الذين قَصَّوْا أخبار فتية الكهف أنهم كانوا أبناء أسر ميسورة، وكانوا يعيشون في دَعَةٍ ورَغَدٍ وقصور آبائهم وأمهاتهم لكن كان في تلك القصور شرك فتركوا القصر وذهبوا إلى الكهف فكان الكهف أعز وأهنأ وأطرب وأكرم من أيِّ قصر؛ لأنهم كانوا قريبين من الله عزل وجل.

فعلى المسلم إذا تعرض إلى الاختبار أن يختار جانب الله على من سواه.

يطلب من كل أخ فينا أن يعتزل الباطل والشر وأهل الكفر والضلال أما أن يبقى الشاب مجالساً لأهل الرذيلة مصاحباً لهم، ويبقى التاجر شريكاً ومواصلاً ومحباً لأهل الفحش ثم يقول: أنا من أهل الصلاح ومع أهل الصلاح! فحقيقة هو ليس منهم؛ لأن الله دعا إلى اعتزال الباطل وأهله.

بحث العلماء في مسألة أيها أفضل العزلة أم الاختلاط بالناس؟

وهذه المسألة مهمة جداً فإن أحدنا لا يُحصِّل قرباً من الله وإيماناً يباشر قلبه وشرحاً في صدره إلا بعد جهد جهيد وخاصة في هذا الزمن الذي تعرض فيه الفتن، وتتاح الموبقات، وييسر الحرام والذهاب إليه، ويشق الذهاب للحلال.

فإذا نلت صدراً منشرحاً بالذكر، وقلباً يخشع لذكر الله تعالى، وبدناً منصرفاً إلى الطاعات، وروحاً تَوَّاقةً للقرب من الله عز وجل؛ فقد نلت منزلة عالية عند الله عز وجل.

بعض الإخوة إذا قرأ القرآن دمعت عينه فلا يقرأ القرآن إلا بعيون دامعة.

بعض الأخوات أكرمها الله بحفظ القرآن الكريم.

بعض الإخوة إذا سجد بَلَّ موضع سجوده.

بعض الإخوة قال لي: أنا من سنوات أربعة لم تفتني صلاة التهجد.

مجموعة من الإخوة فينا محافظون على صلاة الجماعة.

بعضنا يطرب بمجالس العلم ويحن إليها.

فكل ذلك عطايا نالها كل واحد فينا من الله تعالى فبعد أن نلت هذا الفضل الإلهي هل يعقل أن تتخلى عن ذلك لأجل الاختلاط مع الناس؟!

فلهذا كانت مسألة العزلة والاختلاط بالناس من المسائل الهامة.

أ. **قالوا:** من خاف على دينه في الفتنة أن يذهب، وخاف على إيمانه أن يتبدَّد، وخاف على صلته بالله عز وجل أن تضعف؛ فالعزلة أفضل من مخالطة الناس إلا للضرورة الشديدة حفاظاً على إيمانه.

الفتنة في الاصطلاح: (**أن تخرج رجلاً من دين الإسلام إلى غير الإسلام**).

الفتنة في المعنى العام: (**كل ما أوقع الناس في معاص**).

واستدلوا على ذلك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ**)) [البخاري].

شَعَفَ الْجِبَالِ: أي رؤوسها.

مَوَاقِعَ الْقَطْرِ: أي أماكن نزول المطر .

ب. أما إذا لم يخف على إيمانه فالاختلاط بالناس أفضل، واستدلوا على ذلك بـ:

1- الاختلاط بالناس حال النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء من قبله، فلم يرد أن النبي صلى الله عليه وسلم خلال سنوات بعثته أنه اعتزل الناس إلا في أزمنة ليخلو بها بربه.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَعْتَكِفُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ** [مسلم].

عَنْ الْأَسْوَدِ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ: **مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: (كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ [تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ] فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ)**.

[البخاري]

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (**أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَحْتَجِرُ حَصِيرًا بِاللَّيْلِ فَيُصَلِّي عَلَيْهِ وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ فَيَجْلِسُ عَلَيْهِ**) [البخاري].

قال الإمام النووي: (**معنى يحتجر: يحوط موضعاً من المسجد بحصير يستره، ليصلي فيه، ولا يمر بين يديه مار ليتوفر خشوعه ويتفرغ قلبه**) [فتح الباري].

2- عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((**إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا كَانَ مُخَالِطًا النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِيْ لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ**)) [الترمذي وابن ماجه].

قال الإمام الصنعاني في هذا الحديث: (**فيه أفضلية من يخالط الناس مخالطة يأمرهم فيها بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحسن معاملتهم فإنه أفضل من الذي يعتزلهم ولا يصبر على المخالطة**) [سبل السلام].

3- استدلوا بما يحصله المسلم من مخالطة الناس من أعمال إسلامية كثيرة مثل: إعانة المحتاج، وإغاثة الملهوف، وشهود الجماعات، والجمع، والجنائز، وزيارة المرضى، وحضور حلق الذكر...

النتيجة: إذا خفت على نفسك من أن يُسحب دينك منك فاعتزل الناس حتى تحافظ على دينك وصلتك بالله وحفظ للقرآن الكريم وحفظك لأوامر الشرع، لكن إذا أمنت أو كنت في زمان أو مكان آمن فخالط الناس.

اعلم أنك مع مخالطة الناس فأنت بحاجة إلى ساعات لتخلو بها بربك.

كانت سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: (**خذوا بحظكم من العزلة**) [العزلة للخطابي].

بيتك هو كهفك فلا يُطلب منك أن تخرج لرأس الجبل حتى تخلو بربك.

الصحابة رضي الله عنهم جعل كل واحد منهم لنفسه في بيته مسجداً، والمسجد: هو مكان السجود، فكانوا إذا جاء النبي صلى الله عليه وسلم لبيتهم طلبوا منه أن يصلي لهم فيه ليتخذوا مكان صلاته مسجداً.

عَنْ عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ الْأَنْصارِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: **كُنْتُ أُصَلِّي لِقَوْمِي بَنِي سَالِمٍ فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: إِنِّي أَنْكَرْتُ بَصَرِي وَإِنَّ السُّيُولَ تَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَ مَسْجِدِ قَوْمِي فَلَوَدِدْتُ أَنَّكَ جِئْتَ فَصَلَّيْتَ فِي بَيْتِي مَكَانًا حَتَّى أَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا فَقَالَ: ((أَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ))، فَغَدَا عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ مَعَهُ بَعْدَ مَا اشْتَدَّ النَّهَارُ فَاسْتَأْذَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَذِنْتُ لَهُ فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى قَالَ: ((أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟)) فَأَشَارَ إِلَيْهِ مِنْ الْمَكَانِ الَّذِي أَحَبَّ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ فَقَامَ فَصَفَفْنَا خَلْفَهُ ثُمَّ سَلَّمَ وَسَلَّمْنَا حِينَ سَلَّمَ.** [البخاري]

فيجب على كل منا أن يأخذ حظه من العزلة بأن تجعل في غرفتك الخاصة أو في غرفة الضيوف مكاناً خاصاً تجلس فيه لتخلو بربك بعد الفجر وبعد العصر حتى تكون عاملاً بما فعله أهل الكهف والصالحون من الخلوة بحضرة الله تعالى.

كان سيدنا عمر رضي الله عنه يقول: (**في العزلة راحة من خليط السوء**).

[العزلة للخطابي]

قال الإمام الغزالي: (**تحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من الجليس السوء**) [إحياء علوم الدين].

نُسِبَ إلى محمد بن سيرين قوله: (**العزلة عبادة**).

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: **قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ:** ((**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**)) [الترمذي].

فكل أخ بيننا حتى يحصل صلة بالله فلا بد له أن يعتزل الضلال وأهله إلا أن يكون قادراً على تغيير هذا الضلال.

إذا كان لي صديق أحبه محبة كبيرة أو يأتيني منه منافع دنيوية لكنه من أهل الشر والضلال والفجور فعلي أن أعتزله إلا أن أكون قادراً أن أسحبه إلى الخير، فإن لم أكن قادراً فعلي أن أتركه وأن أدعو الله له بالهداية والصلاح، حتى إذا قويتُ عُدْتُ إليه لأصطحبه إلى طريق الرشاد.

قال الإمام الغزالي: (**إن وجدت جليساً يذكرك اللهَ رؤيتُهُ وسيرتُهُ فالزمْهُ ولا تفارقه، واغتنمه ولا تستحقره، فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن**) [إحياء علوم الدين].

اختبر الشاب لفترة طويلة قبل أن تصطحبه فإن وجدته خيراً منك فصاحبه حتى ينهض بحالك إلى الله عز وجل فإن لم تجد ذلك الشاب فاعتزل الناس.

قال الإمام القرطبي في هذه الآية ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ . . .﴾: (**هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة، وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم فاراً بدينه، وكذلك أصحابه**) [الجامع لأحكام القرآن].

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (**نعم صومعة الرجل بيته يكف سمعه وبصره ودينه وعرضه**) [العزلة للخطابي].

فبيتك ومسجدك قد يكون في مجلس العلم فتأوي إليه والله تعالى قال: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ .

يهيئ الله لك رفقاً وتيسيراً لأمرك وينشر عليك من رحمتك.

أحياناً يكون هناك مجموعة من الأصدقاء وأحدهم له هيمنة على الباقين إلا أنه شرير وقد يوصلهم إلى الفواحش، فقد حدثني أحدهم عن مثل هذا الشخص وأنه أوقع به في الموبقات.

فمن كان له مثل هذا الصاحب فيجب عليه شرعاً أن يعتزله.

عد العلماء فوائد للعزلة منها:

1- **تقوية الصلة بالله عز وجل**: لأنك في خلوتك تقوم بقراءة للقرآن، وذكرٍ لله عز وجل، وصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقراءة ودراسة في كتب العلم...

2- **الابتعاد عن المعاصي التي يتعرض إليها المرء بالمخالطة**: كالغيبة والنميمة والرياء...

قال الخطابي: (**لو لم يكن في العزلة إلا السلامةُ من آفة الرياء والتصنع للناس وما يُدفَعُ إليه الإنسان إذا كان فيهم من استعمالِ المداهنة معهم وخداعِ المواربةِ في رضاهم، لكان في ذلك ما يُرَغِّبُ في العزلة ويحركُ إليها**) [العزلة للخطابي].

3- **النجاة من الفتن وصيانة الدين:**

عَنِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: **بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ ذَكَرَ الْفِتْنَةَ فَقَالَ: ((إِذَا رَأَيْتُمْ النَّاسَ قَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا)) وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ؟ قَالَ: ((الْزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ))** [أبو داود والإمام أحمد].

4- **السلامة من شرور الناس وحسدهم.**

قال عمر رضي الله عنه: (**في العزلة راحة من خليط السوء**) [العزلة للخطابي].

5- **ستر للعورات**: فتستر بها عورة اللسان، وعثرات الحركات، وفلتات الذهن، ورعونة النفس...

النتيجة:

1- إذا كان لك أصحاب يدعونك إلى الخير ويأمرونك بالبر ويزيدون في قوة صلتك بالله عز وجل فابق معهم، وإذا لم تجد هؤلاء الأصحاب وكان لك أصحاب معاكسين لهؤلاء فاعتزالهم واجب.

2- كل من خاف على نفسه من الاختلاط بأن يبتعد عن الله، وتذهب صلته بالله عز وجل، وما حصله من مجالس العلم والذكر؛ فالصواب في حقه أن يعتزل مَن يخاف منهم حفاظاً على إيمانه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.